توطئة

منذ بضعة اشهر عربنا للكاتب السياسي الفرنسي جـان چاك بيربي المتخصص في الشؤون العربية والاستاذ المحاضر في معهد الدراسات العليا للادارة الاسلامية كتاباً يحمل اسم « الخليج العربي » وها نحن نقدم الآن كتاباً آخر للمؤلف نفسه هو كتاب « الجزيرة العربية »

ان هذين الكتابين الفرنسيين عن الشرق العربي ليسا وحيـدين من نوعهما بل هما قطرتان من غيث منهمر . وازاء هذا الفيض الزاخر الذي يتدفق من مطابع الغرب لا بد للقارىء العربي من ان يتساءل عن سر هذا الاهتمام البالغ الذي يُبديه كتّاب الدول الغربية وعلماؤها ، بقضايا الشرق عامة والشؤون العربية خاصة كما ان عليه ايضاً ان يتساءل اذا كان من المصلحة القومية ان يطلع على كل ما تحتويه هذه الكتب من آراء ومعلومات ...

منذ حملة السويس الفاشلة شعر عقلاء الغرب ان الأساليب التي درج عليها ساستهم قد عادت على شعوبهم بالشر الوبيل كما لحظوا ايضاً ان جهلاً مطبقاً لاوضاع البلاد العربية يخيم على عقول المواطنين عندهم . ولو ان العلاقة بين اوروبا الغربية والمشرق العربي غير ذات اهمية بالنسبة

نعم لهان الامر . ولكن الازمة التي حلت بالصناعة الاوروبية عندما توقف البترول العربي عن السيلان بعد نسف الانابيب في تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ ، وتعطيل قناة السويس ، أفهمت كل اوروبي مهما كان مستوى ثقافته مدى ارتباط الاقتصاد الغربي بصحراء العرب حيث يكمن القسم الاكبر من احتياطي البترول في العالم . بسبب ذلك كله بادر كتاب الغرب لا سيما المتخصصون في العلوم السياسية والاقتصادية والتاريخية الى احوال البلاد العربية يشرحونها في دراسات موضوعية لاخوانهم المواطنين كي يبنوا جسراً متيناً للتعاون الحق بين الشعوب .

ونحن العرب لا يمكننا مطلقاً ان نبقى في معزل عما ينشر ويكتب عنا بعد ان احتلت القومية العربية مكاناً مرموقاً في المحافل الدولية ، وان تعذّر علينا ان نُرسي علاقاتنا بالامم والشعوب على قواعد متينة . كما ان هذه المؤلفات بما تحويه من تحليلات منطقية واحصاءات دقيقة هي غذاء فكري لنا لا يعوّض قل مثيله بين الكتب الصادرة باللغة العربية اصلاً .

لذلك وجب على رجال الفكر العربي الذين تيسر لهم الوقوف على تيارات الفكر الغربي ان ينقلوا الى اخوانهم العرب الكتب والمؤلفات التي يدبجها رجال الاختصاص عن ديارهم كي يوسعوا ثقافتهم القومية ، مع العلم بان الاختيار في هذا المضمار عمل من الصعوبة بمكان . وهنا يجب ان يلعب الضميرُ القومي لدى المترجم دوره كي يصون مصلحة أمته التي اليها ينتسب ويوفق بين ذلك والامانة العلمية التي تفرض ابقاء النص على ما هو عليه دون تحريف .

وعملاً بهذا النهج نقلنا كتاب « الخليج العربي » الى العربية ، وألحقناه بهذا الكتاب الثاني « الجزيرة العربية » .

قد يظن بعض القراء العرب ان لديهم ما يكفي من المعلومات عن القسمين الجنوبي والشرقي من الجزيرة العربية حيث يكافح اخوان لنا في العروبة ضد الاستعمار في عدن وحضرموت ومسقط وعمان والبحرين

والخليج .. ونحن لا نبخس اي امرىء معلوماته . وانما نطلب منهم غير مأمورين ان يقرأوا ما كتبه جان جاك بيربي عن هـذه المناطق المتفلة التي عزلتها القوى الاستعمارية عن شقيقاتها العربيات وعندئذ سيدركون سعة الآفاق التي يفتحها هذا الكتاب امام عيونهم .

ان كتاب « الجزيرة العربية » دراسة تحليلية شاملة لماضي هـذه الديار وواقعها مدعومة بالمستندات التاريخية والبيانات الاحصائية . والمؤلف فيها لم يترك شاردة ولا واردة . وقد انتقل بنا بعد اعطائنا فكرة سليمة عن طبيعة هذه الارض من المملكة العربية السعودية، التي شهدت ولادتها بعد الحركة الوهابية الى اليمن العربية السعيدة يمن مأرب وسبأ التي تتنازع اليوم على الحدود مع البريطانيين الذين نزلوا عنوة وغصباً في عدن ، ومن ثم الى حضرموت والمحمية الشرقية ، الى مسقط وعُمان حيث يواجه المناضلون الاباةُ في الجبل الاخضر قوى الاستعمار الذي يريد ان يذلهم ويستعبدهم . واخيراً يحطُّ رحاله في الكويت الاسطورية التي سلبت عقول المراقبين بانقلابها السريع . وهنا لم يداور المؤلف ولم يراوغ بل اوضح كم يستفيد الغرب لاسيما بريطانيا من خيرات الكويت الدافئة ، مؤكداً ان الانفصال الاقتصادي بين الامارة الغنية والمملكة المتحدة اذا حصل يهدد الكيان البريطاني في الصميم .

ونحن الذين عربنا هذا الكتاب القيم نعتقد ان الواجب القومي يفرض على كل عربي اياً كان مستوى ثقافته والى اي بلد انتسب ان يقرأ بامعان وروية فكر ، ما جاد به جان جاك بيربي كي يحصل على احدث صورة لاوضاع الجزيرة العربية التي تملك من القوى الروحية المنبثقة عن الاسلام والامكانات العـــادية المنبجسة من احواض البترول معيناً لا ينضب .

ومتى فعل ذلك عرف المستقبل السعيد الذي ينتظر بلاده في معارج التقدم وأيقن ان السواعد البناءة في أمته لا بد من ان تهدم بمعاولهـــا

حصون الاستعمار الباغي والرجعية الذميمة والتخلف البغيض ،
فلنقرأ كتاب « الجزيرة العربية » :
ولنتذكر دوماً ان الليل الاسود المديد نهاية
وان الصبح ليس ببعيد

في ١١-٤-٦٠ المعربان

obeikandl.com

تقديم

بقلم : بيار روندو

منذ امد بعيد والجزيرة العربية تدغدغ مخيلة الغرب : منذ الوقت الذي قدّم فيه الملوك المجوس هداياهم حتى الوقت الذي اخذت فيه الناقلات الضخمة تعبّ البترول ، منذ ولادة الاسلام حتى التطور المذهل العجيب للمملكة العربية السعودية ، والجزيرة العربية تبدو امام ناظرينا بلاد السراب : لقد احببنا ان نعبرها في نطاق الفكر والثروات والسلطان الموارد الوهمية المحيّرة : وفي مناظرها الجليلة التي تضفيها الاحجار والرمال ، تتتابع في عصرنا الحاضر صورٌ محاطة بهالات من القوة والغموض ، صور امثال لورانس وابن سعود وفيليبي واوناسيس .

ولسنا نعنى بالسراب أحداث السنوات الاخيرة . ان الاشهر الماضية القريبة تشهد بذلك والجزيرة العربية اليوم ، في نطاق البترول ، تعتبر احدى المناطق الرئيسية التي تزوّد اوروبا بحاجاتها من هذه المادة الهامة ؛ ولذلك تعلّق الدولة في سياستها على هذه البلاد الصحراوية في اغلبها ، اهمية متزايدة ، والاعتبارات الستراتيجية ليست دائماً غريبة عن هذا الاهتمام المقلق . وتسبغ النزاعات حول واحة البريمي ، وفي جبال عمان ، وعلى حدود محميات عدن ، تلك البقاع النائية اهمية خاصة تتخطى بكثير

المظهر الباهت للصراع . واخيراً كان اسهام الملك سعود في المشروعات الاميركية لتطوير الشرق الاوسط ، عملاً لفت الانظار في المحافل الدبلوماسية الى الدور الذي يمكن ان تقوم به دول الجزيرة العربية على الرغم من تركيبها القديم ، تركيب القرون الوسطى ، بين الدول الحديثة .

ان هذه العوامل المعقّدة كلّها تستأثر ولا شك بانتباه الرأي العام الفرنسي ، ولكن شؤون الشرق عامة هي في اذهان الفرنسيين روايةٌ خيالية غريبة اكثر منها موضوع علمي للبحث الدقيق . لقد كانت قضايا الجزيرة العربية في المدة الاخيرة موضوعاً للبحث والنشر المزدهي بالالوان في الصحف والمجلات . ولكن ذلك كله ليس بداية للعمل الذي من شأنه ان يسهل المعرفة الدقيقة الكاملة لهذه القضايا وما يكمن وراءها . ان نقصاً كهذا يزداد وضوحاً عندما نعلم بأن الاقتصاد الفرنسي ، وحياة فرنسا نفسها ، مرتبطان الى حد بعيد بالعالم العربي. ويكفي ان نذكر ، للتدليل على ذلك ، حاجة فرنسا الماسة الى بترول العرب . وعلى الرأي العام الفرنسي منذ الآن كي لا يتعرض الى مفاجآت مؤلمة ان يُعير اهتماماً خاصاً رصيناً لقضايا هذه المنطقة من العالم .

وهذا الكتاب الذي يضعه السيد بيربي بين ايدينا اليوم يتيح لنا ذلك . إنه يشكل ، في الواقع ، اول دراسة موضوعية كاملة باللغة الفرنسية عن مجموعة القضايا المطروحة في الجزيرة العربية . انه يقدّم الى الجمهور الفرنسي ، العنصر الرئيسي اي المستندات التي كانت تنقصه حتى اليوم ، وهذا النقص كان يبرّر الى حد ما ، كما يجب ان نعترف ، الصفة العفوية الخفيفة ، او الخفيفة فقط ، لردود الفعل الفرنسية على المشاكل التي كان من العسير على الفرنسي في خضم المصالح البترولية ان يرى اسسها ودوافعها الحقيقية .

اننا نغتبط اذن ، عندما نلاحظ ان ثغرة قد سُدّت . والسيد بيربي الذي وقف نفسه منذ عدة سنوات على التحري العميق عن جذور القضايا

في الجزيرة العربية ، يستحق اعترافنا الكامل بجميله لا سيما وانه قد تحدث بكثير من العلم والعناية والموضوعية والنزاهة ، عن هذا القطاع الذي كنا ولا نزال نعلم عنه الشيء الضئيل . قليلة هي المؤلفات التي يمكنها ان تأتي في وقتها المناسب ، بمثل هذه الدقة ، وتُعرَضُ ، ليس فقط على الاختصاصيين في شؤون العالم العربي بل على كل مراقبي السياسة الخارجية ، والمعنيين بالاقتصاد والاعمال الكبرى ، وبصورة ابسط على جميع الفرنسيين الذين يشغلهم مصير الوطن ومصالحه الحقة :

بيار روندو

مدير مركز الدراسات العليا للادارة الاسلامية

obeikandl.com

مقدمة

ان بترول الجزيرة العربية يدير محركاتنا ويدفيء بيوتنا ، والاسلام الذي وُلد في الجزيرة الكبرى يشكل عنصراً فائق الاهمية في سياستنا الوطنية والدولية ، والعروبة التي أخذت اسمها من هذا المكان تُعتبر سبباً لعدد كبير من مشاغلنا ومشاكلنا . ومع ذلك فأننا ما زلنا بعيدين عن شؤون الجزيرة العربية كأنّها لا تخصنا بشيء .

وبعد البحث الطويل عن المستندات المتعلّقة بالجزيرة العربية ، انتهيتُ الى كتابة هذا المؤلف . منذ بضع سنوات ، وانا الاحظ ان عبارة « شبه الجزيرة العربية » يتبعها حتماً كلمة « بترول » . والى هذا التوارد الذي لا بدّ منه يجب ان تُضافَ صورةُ البدوي القاسي ، الرحالة الذي لا يتعب بين الرمال ، او المحارب الشجاع ذي العيون السود.

تحتلُّ الجزيرة العربية بمساحاتها الشاسعة الصحراوية ، وسكانها الفريدين حملةَ الحضارات الكبرى ، ملايين الكيلومترات المربعة ، حيث يجدُ الانسانَ نفسه وجهاً لوجه امام الطبيعة القاسية التي لا مثيل لها . وهذا الخزان الكبير للقبائل البدوية ، الذي مزّقته الطرقات وخطوط انابيب البترول ، يتحوّل عن المصير الذي أعدّه له ماضيه . اذ ان البلاد قد أصابتها عدوى حضارية ستقضي في ظرف سنوات على طرق الحياة

للعزيقة : واهم ما يلفت الانظار في عصرنا الحاضر ، هذا الزوال المتزايد للحياة البدوية التي انبثقت بصورة غريبة من اعماق العصور السحيقة وعايشتها ثم انهارت امام الرونق والبهاء اللذين يرافقان الحضارة الصناعية والتكنولوجيا الحديثة .

ان الانسان الحديث الذي تركز نهائياً في بيئة معينة يتطلع بعين الحسد الى البدو القدماء ؛ وهو كمواطن ثابت يحذرهم لأنه ليس لهم روابط مادية واملاك ثابتة غير منقولة ، ولا اوراق تثبت هوياتهم وعناوينهم ، التي بفضلها يستطيع رجل الشرطة او الجاني ان يهتدي اليهم دائماً . ومع ذلك يجب ان لا يتبادر الى الاذهان ان حياة البداوة لا قواعد لها ولا قوانين . ان اي عالم من علماء الاجتماع يعرف تلك القواعد غير المكتوبة . وهي صارمة جداً : وكل من يخرج عنها من البدو عقابه النفي خارج العشيرة ، والعيش مع الحيوانات او الموت في الصحراء.

ان الجزيرة العربية صحراوية في اكثرها ، وزاوية ضيقة منها كثيفة السكان هي التي صدرت موجات من سكانها الى الشرق الاوسط حتى الى المغرب . انها العربية السعيدة فيما مضى او اليمن اليوم ، بلد الجبال الخضراء والسكان المتحضرين حيث سادت ملكة سبأ . وقد بقيت سراً يكتنفها الغموض . هناك سكان جبليون قليلو الثروة ؛ كان جدودهم قد علّموا العالم الجبر ومزايا القهوة ، وهم يحوّلون بجهد دائب شكل الارض ليسحبوا منها ما يسدّ رمقهم . وقد لقنتهم عزلتهم وصراعهم المستمر ضد الغزاة في تاريخهم الحافل الصمت والحذر . ان «سويسريي» الجزيرة العربية هؤلاء على اتم الاستعداد دائماً لحمل بندقية قديمة وتحطيم رأس اي اجنبي اقلقهم دخوله المريب . ان حذرهم ليس له ما يوازيه سوى روح الضيافة عندهم ، وصلابتهم لا يدانيها سوى تجردهم . لقد نسيهم التاريخ ، وما زالوا كذلك كأنهم ليسوا من ابناء هذا العصر .

ان المدنية الحديثة لا تريد كما يظهر ان يبقى في ارض سكان بدون

آلات ، ينامون بدون خوف على بترولهم غير المستغـل ، لذلك قفزت فرحاً فوق اسوار المملكة اليمنية العريقة الضائعة بين جبالهـا ، لتحمل لها بقوة الاكراه والاغواء دولارات وسيارات ، مع الاطباء والخبز اليومي .

كل شيء قد تغير اذن في الجزيرة العربية بطريقة اسرع احياناً من قدرتنا على الادراك . وقد ذكر هاري سان جون فيلبي ، الخبير الكبير في شؤون الجزيرة العربية : « ان الجزيرة العربية الصحراوية قد تغيرت تماماً خلال الاربعين سنة الاخيرة التي عرفتها فيها ، بل أقول في العشر أو الخمس عشرة سنة الاخيرة » . وأنا في كتابي هـذا وددت أن أعطي ، صورة لهـذه الجزيرة العربية الجديدة ، وكـان يجب أن يحمل اسم « العربية الحديثة » ولكن هذه « الجدّة » عابرة ، وهي ليست سوى موجة من موجات بحر « الابدية » وخير أن يبقى اسمه كما وضعته لانه اثبت في وجه الزمن . وأنا اذا حاولت أن أدون أحداث هذه الفترة القصيرة من التاريخ البالغة الاهمية بالنسبة لنا لاننا نحياها ، كان عليّ أن أحذر ، باستمرار ، خطرين هما : الانزلاق وراء الغريب ، وذكرُ أحداث مشكوك في صحتها على العموم .

وبين الاسلوب الروائي ، والسرد الجاف للاحداث ، التزمت الحد الوسط ولم يكن من السهل العثور عليه ، وأنـا لا أدعي أنني عثرت عليه ولكنني حاولت .

ان الحاضر الرجراج ليس صالحاً لعمل هادىء يقصد به النفع . لقد أردت أن أعرض مؤلفاً متجاوباً مع الحاضر على قدر الامكان وفضلت ألا أستخدم معلومات مشبوهة . وعلى الرغم من الأبحاث والتنقيبـات الطويلة والتحريات والتدقيق في المعلومات المجموعة ، لا أزهو ولا أعتد اعتداداً فارغاً بل اعتقد أن هذا المؤلف لم يخلُ من الهنات والأخطاء : ولكنني أتمنى مع ذلك أن يكون في مستوى الجهود المتعددة والمساعدات

التي بذلت من أجله .

أود أن أختم هذه المقدمة بأن أعبر عن امتناني وشكري لجميع أولئك الذين ساعدوني وزودوني بالمعلومات منذ سنوات عديدة ، وبصورة خاصة أولئك الذين شجعوني منذ البدء في دراساتي عن بلدان الشرق الأوسط . ولحسن حظي انهم كثر ولا يمكن تسميتهم كلهم . ولذلك لن أسمي أحداً . بل اكتفي بالاشارة الى اعترافي بالفضل لمركز الدراسات العليا للادارة الاسلامية ، ومركز الدراسات السياسية الخارجية ، وجميع هيئات الأبحاث الفرنسية .

لدى كتابتي هذا المؤلف ، فكرت مراراً متعددة في صديقي بيار ب . محافظ مدينة الجزائر ، اذ لولاه ، ربما لم يخرج هذا الكتاب الى حيز الوجود : فالى جميع أولئك الذين يعتقدون بمستقبل أفضل للعلاقات الفرنسية – الاسلامية ، أهدي عملي آملاً الا تهدم السياسة ما يبنيه المفكرون يوماً بعد يوم .

جان جاك بربي